

القديم الجديد في الشعر

١

لعلنا لا نغلو إذا قلنا إنه لا يوجد قديم في الشعر، إلا إذا أردنا بذلك التعبير عن زمن ظهوره، أما بعد ذلك فهو متجدد دائماً كأنما نُظِم بالأمس، إذ لا نزال نقرؤه ولا نزال نجد متعة فيه كما وجدها معاصروه، بل ربما كانت متعتنا به أكثر من متعتهم لكثرة الأيدي والأبصار التي تناولته وعلقت عليه شارحة مفسرة من لدن ظهوره وإنشاده إلى اليوم. والشعر بذلك يظل ناصراً جديداً خافقاً بالحياة، لا تصيبه آفة الهرم والشيخوخة، فما نظمه هوميروس في القرن التاسع قبل الميلاد مثل ما نظمه امرؤ القيس في الجاهلية لا يزال يحيا بيننا ولا تزال له نفس الجدة التي كانت له، لم يشخ ولم يهرم. وهي ليست جدة مادية، بل هي جدة روحية إن صح هذا التعبير، فالجدة في الأشياء المادية تبلى وتفنى، أما في الشعر فباقية بكل ما لها من بهاء وشباب لا يزول أبداً، وهو حتى في الإنسان الذي ينظم الشعر سريع الزوال، أما في الشعر فلا يبرحه يوماً، فهو دائماً شاب ودائماً جديد.

والأدلة على ذلك كثيرة، لعل أوضحها أن كل شعر أنتجته الإنسانية لا يزال يرافقنا إلى اليوم، ومحرم علينا أن نحدث في أي قصيدة أو منظومة تعديلاً في كلمة من كلماتها فضلاً عن شطر من شطورها أو بيت مفرد من أبياتها؛ إذ يجب أن تبقى بصورتها دون أي تعديل أو تنقيح، حتى لا يدخل عليها أي تشويه أو حتى تزوين. وتوضح ذلك أتم توضيح المقارنة بين العلم في أي عصر سالف وبين الشعر الذي نُظِم فيه، فإن الحقائق العلمية تتحول من عصر إلى عصر بحيث تبطل كبرتها وتحل محلها حقائق جديدة في العصر التالي، فما بالناس بما يحدث لتلك الحقائق في العصور التالية. ومن هنا كانت الحقائق العلمية غير ثابتة، بل كانت متغيرة من زمن إلى زمن شديدة التغير، مما يجعل أي كتاب علمي سابق لعصرنا